بناء المعرفة الجغرافية – العنصرية ، والمكانية

أودري كوباياشي

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

إن بناء الجسم البشري هو شكل تاريخي من أشكال المعرفة الجغرافية التي تعكس ماضي الجغرافيا الذي كان يركز على العين . ورغم أنهم نادراً ما كانوا صريحين في القيام بذلك ، فإن الجغرافيين كانوا يتبعون عادةً المعايير الاجتماعية السائدة والاتجاهات الفكرية ، ويضعون أجساد البشر في مظاهر طبيعية معينة ، ويضعون حدودًا مكانية لأنشطة تلك الأجساد ، ويربطون خصائص تلك الأجساد (جنسهم ، أو "عرقهم" أو قدرتهم ، على سبيل المثال) بأماكن محددة . بعبارة أخرى ، فإن الكثير من تاريخ جغرافية الثقافة يتعلق بكيفية رؤية الأجساد - وكيف ينبغي أن تُرى . ويتجلى هذا الاتجاه الذي يركز على العين بقوة في الطرق التي بنى بها الجغرافيون أجسادًا مرئية عرقيًا ، ويرتبط بشكل أساسي بالطرق التي صنف بها المجتمع ككل البشر وفقًا لرؤية عرقية .

في هذا الفصل القصير ، أتناول مفهوم الجسم العرقي كشكل من أشكال المعرفة الجغرافية . إنني أضع الجسد العنصري في ثلاث لحظات عامة في تاريخ النظرة التأديبية الغربية : خلال أواخر القرن الثامن عشر، عندما وفرت أفكار التنوير مبررًا علميًا للتوسع الاستعماري العنصري الذي بلغ ذروته في مشهد حديث عنصري عميق بعد قرن من الزمان ؛ خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، عندما جُرّد الجسد العنصري من خصائصه الخاصة ولكن النظرة غير المتمايزة اللاحقة أدت إلى تعميق فئات الاختلاف ؛ وأخيرًا خلال فترة ما بعد البنيوية ، حيث تم الاعتراف الصريح بالجسد العنصري بكونه بناء اجتماعي وحاول بعض الجغرافيين تعطيل الرؤية العنصرية من خلال التحليل المناهض للعنصرية . في كل اللحظات الثلاث ، أحاول ربط جغرافية المعرفة والرؤية "العنصرية" بالسياق الفكري والاجتماعي الأوسع .

إن العلماء الذين يدرسون عملية العنصرية يتفقون عموماً على أن مفهوم **"العرق"** ، على الأقل كما نعرفه الآن ، لم يكن له أي معنى اجتماعي قبل عصر التنوير . وعلى مدى القرنين بين القرن الثامن عشر ومنعطف القرن العشرين ، **أصبح هذا المفهوم جزءاً أساسياً من الفهم الغربي لما هو إنساني** ، وأصبح معيارياً في كل جانب من جوانب الخطاب الشائع ، من الفكري إلى السياسي ، والاقتصادي والاجتماعي . وكان مفكرو عصر التنوير، ومن أبرزهم الجغرافي **إيمانويل كانط** ، قد وضعوا العالم الفكري على مسار يحدد "العرق" **بكونه علامة لا رجعة فيها على القيمة الإنسانية** . وقد دفعت محاضرات كانط في الجغرافيا بالموقف الحاسم القائل بأن لون البشرة هو نتيجة للبعد عن خط الاستواء ، **وأن أصحاب البشرة الداكنة يتمتعون بصفات أخلاقية واجتماعية وفكرية أدنى** .

لقد قام كانط بتقسيم الشكلين الأساسيين للمعرفة الجغرافية إلى نوعين ، نوع "الفضاء" من خلال تأكيد الوضع النسبي للأشخاص من مختلف ألوان البشرة عبر سطح الأرض ، ونوع "المكان" من خلال تحديد أنواع المظاهر الطبيعية البشرية (الأشخاص في أماكن معينة) الأكثر تحضرًا . إن وجهة نظر كانط - التي اعتنقها العلماء على نطاق واسع وبشكل متزايد - تصور البشر كنوع وراثي واحد ، مشتق من ما يسميه "جنس الجذع" ، ويتكون على النحو الاتي : "يمكن تسمية المحددات الأولية لتطور معين والتي هي متأصلة

في طبيعة الجسم العضوي (نبات أو حيوان) ... بالجراثيم [Keime]؛ ولكن إذا كان هذا التطور يتعلق فقط بالحجم أو العلاقات بين الأجزاء ، فأنا أسمي هذه المحددات طبيعية" "التصرفات .(1997a: 42) " .

ومع ذلك ، فإن ظاهرة "العرق" متعددة الجينات ، حيث تنشأ في أجزاء مختلفة من العالم نتيجة لتعديل الجراثيم والتصرفات الطبيعية من خلال سمات معينة للمناخ (درجة الحرارة والرطوبة مجتمعة) وكذلك استجابة لمجموعة متنوعة من المحفزات الطبيعية ، مثل وفرة (أو نقص) النباتات والحيوانات ، أو حتى المسافة البصرية إلى الأفق ، والتي قد يكون لها تأثير على البصر البشري . على وجه الخصوص ، يحدث السواد ، وهو "الدليل" الأكثر أهمية على كل من الخمول الأخلاقي والغباء ، لأن : جفاف [بسبب الشمس الحارقة] الأوعية التي تحمل الدم والمصل تحت الجلد يؤدي إلى نقص اللحية والشعر القصير المجعد . وبالمثل ، لأن ضوء الشمس الذي يسقط من خلال سطح الجلد إلى الأوعية الجافة يلتهم الغشاء الشبكي ، ينشأ مظهر اللون الأسود . (1997ج: 61-2)

كان كانط يعتقد أنه "من الغريب" ، مع ذلك ، أن الناس من "أعراق" أخرى ، وخاصة العرق الأوروبي ، بدا أنهم محصنون ضد مثل هذا التحول الجيني ، لأن "الأوروبيين الذين يعيشون في هذا الحزام الساخن من العالم لا يصبحون زنوجًا بعد أجيال عديدة ، بل يحتفظون بشخصيتهم ولونهم الأوروبيين" (1997ج: 60). وفوق تأثيرات المناخ في مخطط كانط ، توجد ما أسماه "الخصائص الوطنية" ، التي تحدد مستوى تقدير المجتمع للجمال والسمو، وهما أعلى جانبين من جوانب الحس الجمالي . ويأتي الألمان على رأس مقياسه الوطني ، الذين يستطيعون تقدير كليهما ، في حين أن أولئك الذين لديهم إرث فرنسي وإنجليزي أكثر محدودية في حساسياتهم ، حيث يميل الفرنسيون إلى الشعور بالجمال ، والإنجليز إلى السمو (1997ب: 50-1) . وفي المخطط نفسه ، بينما يتمتع سكان أميركا الشمالية بقدر معين من النبل لا يعادل نبل الأوروبيين ولكنه قيم في حد ذاته ، فإن الأفريقي "ليس لديه بطبيعته أي شعور يرتفع فوق التفاهات" (1997ب: 55).

إن وجهات نظر كانط الواضحة ترقى إلى تبرير شامل للشعور بالتفوق الأخلاقي الأوروبي الذي يكمن وراء فكر التنوير . كان العالم تحت سيطرة العين / الأنا الأوروبية ، التي كانت نظرتها تمثل حكم العقل المتحضر. وفي نهاية المطاف ، بالنسبة إلى كانط : **إن سكان الأجزاء المعتدلة من العالم** ، وخاصة الجزء المركزي ، يتمتعون بجسد أكثر جمالاً ، ويعملون بجدية أكبر، وهم أكثر مرحًا ، وأكثر تحكمًا في عواطفهم ، وأكثر ذكاءً من أي عرق آخر من البشر في العالم . ولهذا السبب ، في جميع نقاط الزمن ، قام هؤلاء الناس بتعليم الآخرين والسيطرة عليهم بالأسلحة. (1997ج: 64)

إن آراء كانط بشأن "العرق" ليست أصلية ؛ وكما يشير ليفينغستون ، "فإن تفاصيل تعليمه كانت مستقاة إلى حد كبير من التراث الجغرافي الألماني التقليدي في ذلك الوقت ، ومن بوشينج وفارينيوس على وجه الخصوص" (1992: 114). ومع ذلك ، فإن **أفكار كانط مهمة لثلاثة أسباب** :

أولاً، بصفته أول من تولى منصب أستاذ في الجغرافيا في جامعة أوروبية ، فقد أثر على عدد كبير من الطلاب ، وظلت محاضراته تتمتع بسلطة واسعة النطاق لسنوات عديدة ، بل وقرون ، بعد تقديمها . وحقيقة أنه كان معروفًا في المقام الأول بأنه أحد أبرز الفلاسفة في عصره ، وأن كتاباته حول إمكانية المعرفة البشرية قد أثرت على الفكر الغربي على أعمق مستوياته ، عززت مصداقيته كمدرس للجغرافيا . و

ثانياً، وكما يشير ليفينجستون (1992، 1994) أيضاً ، كان كانط مسؤولاً عن الارتقاء بكثير من المعرفة البشرية بالعالم من عالم الإيمان الديني إلى عالم المعرفة العلمية . وعلى مدار القرنين التاليين ، وبينما تم تعديل أو توسيع أو التخلص من العديد من الحقائق المحددة في تفسيرات كانط العلمية ، فإن الاعتقاد الأساسي بإمكانية التحقق المطلق والعلمي من الاختلافات العرقية لم يتزعزع قط . وعلى وجه الخصوص ، كان الاعتقاد

بالحتمية البيئية للقيمة البشرية هو الذي هيمن على تخصص الجغرافيا حتى وقت متأخر من القرن العشرين .

و
ثالثاً، فإن عمل كانط ـ مرة أخرى ، بصحبة أغلب الكتاب المؤثرين في عصره ـ يوفر ضرورة ملحة لربط "العرق" بالقيمة الأخلاقية الإنسانية ، وبالتالي تبرير أفظع أعمال العنف الاستعماري ، والاستعباد ، والقمع ضد الناس الذين عدهم الأوروبيون كائنات أدنى غير قادرة على تقدير حياة أفضل .
وعلى هذا فإن عمل كانط كان جزءاً من سياق فكري أوسع نطاقاً حيث تم تبرير تصنيف البشر، وفقاً لمقياس حضاري مفترض يجعل البيض أكثر تحضراً وبعيداً عن الطبيعة من السود ، واستغلاله لصالح المشروع الاستعماري (أندرسون، 1998أ؛ 2000).

إن الأعمال الأخيرة التي قام بها جغرافيو الثقافة تظهر إصرار المعرفة العنصرية التي نشأت في عصر التنوير على أن تكون وقوداً فكرياً لظهور الجغرافيا خلال أواخر القرن التاسع عشر كعلم دولي رائد . وقد هيمنت على جغرافيا القرن التاسع عشر سمتان ساحقتان ومتقاطعتان ــ دورها في دعم وتعزيز المشروع الاستعماري الأوروبي ، وافتتانها الفكري بما أطلق عليه ليفينجستون (1992) "الاقتصاد الأخلاقي للمناخ" . **وقد وثق عدد متزايد من الجغرافيين التاريخيين دور الجغرافيا في تعزيز الاستعمار** (درايفر، 1992؛ جودليوسكا وسميث، 1994؛ مايهيو، 2000: الفصل 12؛ ويذرز، 1997). زعم مايو (2000؛ 227-8) أنه خلال أواخر القرن التاسع عشر، في ذروة القومية الاستعمارية البريطانية ، تم التخلي عن الجوانب الأكثر إنسانية في فكر التنوير لصالح العنصرية القائمة على "تفوق" "العرق" الأبيض . برز الجغرافيون كمؤلفين مؤثرين لمعاجم جغرافية لم تكتفِ بنشر مفاهيم عنصرية ، بل ادعت أيضًا الهيمنة بكونها مزودًا للمعلومات حول العالم . أضافت **الحتمية البيئية** مصداقية علمية للقومية الجغرافية ، من خلال تقديم تفسير معقول للتفوق الأبيض المفترض. أصبحت خريطة الجغرافي رمزًا بصريًا مهمًا للسلطة الأخلاقية والعلمية .

ومع تقدم القرن العشرين ، لم يتم قبول الحتمية البيئية ، بالطبع ، عالميًا . لقد عارض كارل ساور وغيره من جغرافيي الثقافة الحتمية من خلال تطوير نظريات الثقافة لتفسير الاختلافات البشرية عبر سطح الأرض . وقد أصبح عمل البيئيين المعاصرين مثل جريفيث تايلور مثيراً للجدال بشكل متزايد في مواجهة الحجج "الاحتمالية" التي تدعم الوكالة البشرية كتفسير لقدرة الإنسان على تعديل سطح الأرض من أجل التغلب على التحديات البيئية . والواقع أنه قد يقال إن أي قضية كانت أكثر أهمية لهذا التخصص ــ وبالتأكيد لم تكن أي قضية أكثر إثارة للجدال ــ من قضية الحتمية البيئية في مقابل الوكالة البشرية . ولكن أياً من الجغرافيين المشاركين في المناقشة قبل الحرب العالمية الثانية لم يتناول بناء "العرق" في حد ذاته ، ناهيك عن تحدي الضرر الذي لحق بحقوق الإنسان نتيجة للعنصرية والاستعمار . لقد بدأ هذا المشروع في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين ، عندما دفعت المعارضة الدولية لنازية أدولف هتلر العلماء والمجتمع بشكل عام إلى البدء في تحدي الإجراءات القائمة على الاعتقاد في الاختلاف العنصري . ولكن الأمر سيستغرق بعض الوقت قبل أن تبدأ آثار حركة حقوق الإنسان في التسلل إلى تخصص الجغرافيا .

التخلي عن "العرق": علم المساواة الجديد

في العقود العديدة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ، كانت الجغرافيا مجالاً متنازعًا عليه . وخاصة في أقسام الجغرافيا في أمريكا الشمالية ، كان هناك دفع قوي لشرعية التخصصات ، حيث سعى "الجغرافيون البشريون بشكل متزايد إلى إيجاد هوية واضحة خاصة بهم داخل العلوم الاجتماعية" (جونستون، 1991: 95) . كانت إحدى النتائج هي الابتعاد عن ما كان يُنظَر إليه على نحو متزايد بكونه **النهج الوصفي ولكن**

الخاوي من الناحية النظرية للإقليمية ، والتوجه نحو علم اجتماعي تصبح فيه قواعد "الفضاء" مبررًا للاستقلال الفكري . وفي حين تحدى عدد كبير، وخاصة من جغرافيي الثقافة والتاريخيين، النهج المكاني (هاريس، 1971) ، كما يشير جونستون (1991: 186) ، فإن حتى هذه التحديات استمرت في الظهور في ضوء إيجابي وليس معياريًا . وبالتالي ، سعى جغرافيو الثقافة إلى تصوير ثراء العمليات الثقافية دون الذهاب إلى حد تحدي دور التخصص في تشكيل الثقافة فعليًا . ولكن بحلول فترة ما بعد الحرب ، لم يعد هناك سوى القليل من آثار الحتمية البيئية ، ولم يعد الجغرافيون متورطين صراحة في مشروع الاستعمار .

لقد ثبطت الحرب الباردة عزيمة الجغرافيين عن الدعوة علناً إلى وجهات نظر قد يُنظَر إليها على أنها متطرفة سياسياً ، في حين كان الموقف العام تجاه تلك الدول الاستعمارية السابقة غير المنحازة هو أن تطورها يمكن أن يحدث من خلال مشاريع التحديث التي كانت طموحاتها شهادة على الاحتمالية . ومع ذلك ، فإن الافتقار إلى المشاركة المباشرة لا يضمن الافتقار إلى التواطؤ الفكري في إعادة خلق الرؤى العنصرية . وفي هذا السياق ، فإن الافتقار إلى الاهتمام بمسائل "العرق" والعنصرية بين الجغرافيين أمر منطقي . وحقيقة أنهم كانوا من البيض (والذكور) بشكل ساحق وبالتالي أقل احتمالاً للتعرف على الطرق التي تم بها إضفاء الطابع العنصري على حياتهم ومحيطهم ، لم يلاحظها أحد إلى حد كبير.

لقد كانت هذه المفكرات غير سياسية عموماً ، في وقت حيث كانت المناقشات حول العنصرية تثير دائماً المواجهة السياسية (كما تفعل اليوم) . ولكن الأهم من ذلك كله في فهم مسار المعرفة الجغرافية ، أن السعي إلى تحقيق الاستقلال في التخصصات يتطلب تحديداً واضحاً للولاية الفكرية للجغرافي ، وكان التحقيق في أجساد البشر يعد خارج نطاق هذه الولاية ، في نطاق عالم الأنثروبولوجيا . وأخيراً ، شجع الإيمان بقوة الحداثة في التغلب على الفقر والقمع ، بين المفكرين الغربيين على الأقل ، على الإيمان المتهاون بأن الانقسامات البشرية أصبحت بلا معنى على نحو متزايد . ونتيجة لهذا ، كتب معظم الأكاديميين ، بما في ذلك الجغرافيون ، وكأن "العرق" غير موجود ، في تناقض مباشر مع الفجوة المتزايدة الاتساع ، سواء على المستوى الدولي أو في مدن أغلب البلدان المتقدمة ، بين البيض وأصحاب البشرة الملونة . وعلى هذا فقد كان الجغرافيون متواطئين في إدامة التأثيرات المستمرة للاستعمار، وإن كان ذلك في شكل جديد من أشكال الحياد المفترض . ولأغراضنا الحالية ، فإن النقطة الأساسية هي أن المناهج الإيجابية (على النقيض من المناهج الوضعية) للجغرافيا إما لم تكن مهتمة بظاهرة "العرق" ، أو عدتها أمراً ضرورياً . وإذا ما تم النظر إلى "العرق" على الإطلاق ، فإنه كان متغيراً بشرياً يحتاج إلى تفسير، إلى الحد الذي يرتبط فيه ببعض المعايير الجغرافية مثل النمط المكاني .

في إطار العمل العلمي الإيجابي الجديد ، نظرت المحاولات الأولى لتوثيق "العرق" بكونه ظاهرة جغرافية (على سبيل المثال ، موريل، 1965) إلى هذه الظاهرة بكونها مشكلة يمكن "إصلاحها" في ظل نموذج مكاني أفضل . **وتم كون "العرق" فئة ثابتة ، والتفاوت المكاني بكونه المشكلة . وكان الفضاء ، وليس "العرق" ، هو موضوع المعرفة الجغرافية** . وكان الرائد الأكثر أهمية في فهم التفاوت المكاني هو هارولد روز، أحد أوائل الأميركيين من أصل أفريقي الذين مارسوا الجغرافيا وأول من تناول صراحةً آثار التفاوت المكاني من داخل المجتمع الأسود (روز، 1970؛ 1972). ورغم أن عمل روز ربما كان أهم بيان تاريخي من قِبَل عالم جغرافي يؤكد أن التفاوت المكاني يشكل الأساس للحياة الأميركية ، فإن مفهومه للعرق ظل ثابتا ، ذلك أن المشكلة التي حددها (على الأقل في منشوراته الجغرافية) تتلخص في التوزيع المكاني وليس العنصرية .

وقد حجبت هذه المحافظة النظرية إمكانية تفسير معاداة العنصرية على أنها أي شيء سوى مشكلة أخرى في التخطيط . وعلى الرغم من العمل المبكر الذي قام به موريل و روز وحفنة صغيرة من الآخرين ، فقد كان هناك اهتماما ضئيلا للغاية بقضايا العنصرية من منظور حقوق الإنسان . ويبدو هذا النهج ساخرا بين الجغرافيين المحترفين الذين يشغلون مناصب في أقسام الجغرافيا التي ازدهرت بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، عندما كان يُنظَر إلى هزيمة النازية على نطاق واسع بكونها هزيمة للعنصرية .

ولكن فترة ما بعد الحرب مباشرة في البلدان الغربية المتقدمة ، وخاصة البلدان الناطقة باللغة الإنجليزية ، حيث ازدهرت الجغرافيا ، كانت فترة إنكار كبير . ولقد شاركت مثل هذه البلدان بشكل فعال في وضع وثائق حقوق الإنسان الدولية ، مثل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة ، وبالتالي فرضت رؤية غربية خاصة للمساواة حيث تم إنكار "العرق" كوسيلة لخلق الاختلاف البشري ، ولكن الجغرافيين محوا مثل هذه المخاوف من داخل نطاقهم المهني . ربما تصوروا أن نضالات الحرب العالمية الثانية قد حلت المشاكل ؛ ومن المؤكد أنهم نظروا إلى العنصرية على أنها خارج مسؤولية الجغرافي .

إذا تم إنكار الاختلاف العنصري ، فإن العنصرية أيضًا تم إنكارها ؛ سوف يستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يبدأ المنتقدون في إدراك أن ممارسة الإنكار كانت في الواقع ممارسة تسمح بالفصل العنصري وإفقار الجماعات العرقية ، وخاصة في الولايات المتحدة ، ولكن بشكل متزايد في جميع أنحاء العالم الغربي وفي الدول المستعمرة سابقًا ، والتي يشار إليها الآن باسم "العالم النامي" . إننا نعيش اليوم مع النتيجة ، في مجموعة مهيمنة من أدوات حقوق الإنسان الدولية التي أنتجتها الدول الغربية المتقدمة وفقاً لمعاييرها ، مع القليل من الاهتمام بالطرق التي قد تختلف بها المعرفة والظروف الإنسانية التي تشكل هذه الأدوات في أجزاء أخرى من العالم ، وخاصة تلك الأجزاء التي يسكنها آخرون من ذوي الأصول العرقية المختلفة .

وما تزال قوة الرؤية الاستعمارية مستمرة . وقد تعزز هذا الإنكار العظيم من قبل الجغرافيين وغيرهم من العلماء الاجتماعيين الذين عرفوا أنفسهم كمراقبين محايدين ، لا يعكسون ولا يعملون كوكلاء للتغيير الاجتماعي . وكان بوسعهم أن يعملوا كمراقبين ومعلقين على العمليات السياسية التي أنتجت أنواعاً معينة من المظاهر الطبيعية والأنماط المكانية ، ولكنهم لم يتمكنوا من الانخراط في ما أطلق عليه بايل (2000) مؤخراً "التفكير السياسي"، أو التفكير الذي من شأنه أن يؤدي إلى تحويل جغرافية العالم وفقاً لرؤية أخلاقية . وكان الادعاء بالمسؤولية عن البقاء على هذا النحو المنفصل بمثابة تعزيز لإنكار العنصرية كقضية اجتماعية . ولكن هذا المنظور بدأ يتحول ، مع إدراك المزيد والمزيد من الجغرافيين لاستحالة اتخاذ موقف محايد وبدءهم في التركيز بشكل أكبر على المخاوف التي تحيط بالمجتمع من حولهم .

بدأت قضايا العنصرية تشهد بعض المناقشات في "نقاش الأهمية" الذي اجتاح هذا التخصص خلال أوائل سبعينيات القرن العشرين (للحصول على نظرة عامة ، ينظر جونستون، 1991: الفصل 7). وتراوح النقاش من التركيز على دور الجغرافيا في التأثير على السياسة العامة بشكل عام (تشيشولم، 1971) إلى معالجة التفاوت الاجتماعي (إيلز، 1973) إلى معالجة التفاوت العالمي (سليتر، 1973). وللمرة الأولى ، بدأ الجغرافيون كمجموعة في مناقشة العلاقة بين العلم الأخلاقي والعلم الإيجابي .

لقد تم تناول قضية العنصرية بشكل صريح مع تأسيس مجلة Antipode في الاجتماع السنوي لجمعية الجغرافيين الأميركيين ، الذي عقد في آن أربور، ميشيغان في عام 1971. وبصفتي شخصًا يدعي أن هذا التخصص لم يول اهتمامًا كبيرًا لقضايا "العرق" ، فمن المثير للاهتمام بالنسبة لي أن أعود إلى تعليق لجونستون (2000) ، الذي ذهب إلى حد القول بأن مجلة" Antipode لم يكن لديها سوى القليل من المواد الماركسية في إصداراتها الأولى ، و... ركزت أكثر على العرق من الطبقة" . صحيح أن الجغرافيا "الراديكالية" المبكرة

عبرت عن قلق قوي ، بل وحتى ساحق ، بشأن **ظروف الحياة في الأحياء السوداء الأميركية المنفصلة بشكل متزايد ، وكذلك في البلدان النامية** . ولم يفشلوا في الإشارة إلى أن غالبية الفقراء والمحرومين في العالم كانوا من ذوي البشرة الملونة (بلوت، 1974؛ بونج، 1971؛ هارفي، 1972؛ 1973؛ سميث، 1974). لم يكن تعريف بلاوت للإمبريالية بكونها "**استغلالًا أبيضًا للعالم غير الأبيض**" أكثر وضوحًا (1970 :65) .

ولكن في نقد معاصر شديد الإدراك ، اقترح ليتش (1973) أنه لا يمكن لأي نهج جذري قائم على تعريف العدالة الاجتماعية ، ولا نهج محافظ قائم على إضفاء المثالية على العدالة المكانية ، أن يوفر جغرافيا اجتماعية "للسود" من شأنها أن تلقى صدى لدى الأشخاص ذوي العرق الأبيض الذين سيصبحون موضوعات للبحث . إن كلا النهجين ينطوي على تصور الناس بكونهم مشاكل ، بدلاً من السعي إلى المشاركة المباشرة في حياتهم ؛ ولا ينطوي أي من النهجين على تعزيز القدرة على تغيير حياة الناس .

وبالنسبة للجغرافيين الراديكاليين ، كانت الرغبة في التغيير الاجتماعي واضحة بالتأكيد ، ولكن التركيز النظري للأعمال الراديكالية المبكرة لم يكن على فهم "العرق" أو عملية العنصرية ، بل على وضع إنتاج العلاقات الاستعمارية والطبقية في عمليات رأس المال . ومع تزايد تعقيد الجغرافيا الراديكالية في تحليلها طوال أواخر السبعينيات والثمانينيات ـ على الرغم من العمل المستمر لعدد قليل من الأشخاص مثل جيم بلوت ـ تحول تركيزها بشكل كبير بعيدًا عن مسائل العنصرية . وقد أدى تفسير التفاوت العنصري بكونه تأثيرًا للعلاقات الطبقية الذي قدمه التحليل الماركسي اللاحق إلى قطع فهم ظاهرة "العرق ."

في هذه المرحلة من تاريخ هذا التخصص ، تم تبني نهج مختلف تمامًا وأكثر استدامة في التعامل مع قضايا "العرق" في إطار الفرع الفرعي سريع التطور للجغرافيا الإنسانية . كما تم تأسيس الجغرافيا الإنسانية كنهج جذري مدفوع بـ "نقاش الصلة" ، ولكن على مدار العقد التالي ، اتخذت طريقًا نظريًا مختلفًا تمامًا ، وكان ، في البداية على الأقل ، أقل مشاركة بكثير من النهج الماركسي في الدعوة إلى التغيير في ظروف المعيشة اليومية . أنا مهتم هنا فقط بتلك الجوانب من الإنسانية في الجغرافيا التي ساهمت في فهم مفهوم "العرق ."

في عام 1981، زعم سيري بيتش أن وجهات النظر الماركسية كانت عاجزة عن وصف ظاهرة الفصل العنصري بدقة أو تفسيرها ، في حين أن الأساليب التجريبية الوضعية القائمة على "الحقائق والملاحظة" التي تعالج "القوى الاجتماعية فوق تلك الموجودة في البنية الاقتصادية" يمكن أن توفر بشكل أكثر فعالية ليس فقط الفهم ولكن الحلول الاجتماعية أيضًا (1981: 31-32). وزعم أن الجغرافيا الإنسانية هي ببساطة امتداد للتحليل الوضعي الراسخ ، ويمتد إلى عمق عالم الحياة الشخصية ، لوصف الظروف المعيشية . كان بيتش يخلط بوضوح بين التحليل "الوضعي" و "الإيجابي" ، ويعزل النظرية والمنهجية الماركسية عن معرفيتها المعيارية . وعلاوة على ذلك ، كان يشتري ضمناً فكرة أن المعرفة الآلية يمكن أن تكون وكيلًا قويًا في تقديم حلول مثالية لما يُنظر إليه على نطاق واسع على أنه مشاكل اجتماعية .

إن هذا الموقف غير مقبول ، سواء من الناحية النظرية أو الأخلاقية . ومع ذلك ، فإن ما هو أكثر أهمية في عمل بيتش هو الإلهام الذي ساعد في توليده في جيل جديد من الجغرافيين الاجتماعيين ، الذين بدأ عملهم في توثيق التجارب اليومية للمجتمعات ذات التوجهات العنصرية (بيتش، 1975). على سبيل المثال ، يمثل كتاب ديفيد لي "المدينة الداخلية السوداء كموقع حدودي" (1974) ، على الرغم من أنه لم ينتقد مفهوم "العرق" ، حدودًا أخرى بين النمط المكاني غير المجسد وتجسيد عالم الحياة اليومية . وفي بيان لاحق يمثل الظهور الأول للمنظورات الإنسانية داخل هذا التخصص ، يؤكد لي و ساموبلز (1978) على الحاجة إلى التحول نحو تفسير معياري للتجربة الإنسانية ، والحاجة إلى فهم التجربة الإنسانية ومنتجات الفعل البشري -

مثل المدينة على سبيل المثال - بكونها بناءات اجتماعية . وعلى الرغم من أن هذا العمل الإنساني المبكر لا يطرح مشكلة "العرق" بكونه بناء اجتماعيًا ، فإنه يحتوي على الأسس النظرية الضمنية لمثل هذا الفهم .

ولكن الجغرافيا الإنسانية لم تزعزع بسهولة بداياتها في عصر التنوير . ففي مجموعة من الكتابات حول التفاعل الاجتماعي والفصل العرقي ، رسم بيتر جاكسون وسوزان سميث (1981: 2) ارتباطًا قويًا بين مفهوم روبرت بارك (1926) الكانطي العميق للعلاقة بين المسافة الاجتماعية والجسدية ، وإمكانية أن يفهم الجغرافيون العلاقات الإنسانية بكونها أنماطًا من التكامل والفصل . وتتبنى معظم الأوراق البحثية التي تشكل هذه المجموعة المحررة مثل هذا النهج "الفيزيائي الاجتماعي" . ولكن جاكسون و سميث كانا جزءًا من جيل أراد أن يصوغ الفهم المكاني في مصطلحات فلسفية أكثر تعقيدًا (ينظر أيضًاEntrikin ، 1980،) والذي أدرك في عمل بارك وغيره من البراجماتيين الأميركيين الأساس لفهم أكثر ارتباطًا بمفهوم "العرق" والذي يتضمن مفاهيم القوة والصراع ، والأيديولوجية كمعرفة شعبية ، والتفاوض على المعنى الاجتماعي والهوية .

وفي حين أن هذه المفاهيم كان ما يزال أمامها بعض الطريق لتشمل منظورًا ما بعد بنيويًا أوسع نطاقًا وتحليلًا نقديًا كاملاً للعنصرية ، فإنها مع ذلك توفر النقد الأكثر تطورًا في ذلك الوقت للصياغات المختلفة لمفهوم "العرق " . الجغرافيا الماركسية والإنسانية ، اللتان بدأتا بجذور مشتركة في مناقشات الأهمية في أوائل سبعينيات القرن العشرين ، انفصلتا على مدى العقد ونصف العقد التاليين (كوباياشي وماكنزي، 1989) حتى حدثت المحاولة المتعمدة للتعلم من كليهما في تطوير الجغرافيات النقدية في أواخر الثمانينيات والتسعينيات . ولعل "التحول النقدي" الناتج هو التطور الأكثر أهمية الذي سمح للجغرافيين ، جنبًا إلى جنب مع علماء الاجتماع الآخرين ، بالتحرك إلى ما هو أبعد من فهم "العرق" بكونه حقيقة مسلم بها إلى الاعتراف بوضعه الاجتماعي المصطنع .

النظرية النقدية "للعرق" والجغرافيا

إن التطور النظري الأكثر أهمية في عصر ما بعد البنيوية هو الاعتراف بأن "العرق" ، مثل أشكال أخرى من المظاهر الجسدية مثل النوع أو الجنسية ، هو فكرة . **وقد سمحت فكرة "العرق" ببناء الجسد العرقي وفقًا لمجموعات من المعاني التاريخية والثقافية والمكانية** . وبالتالي فإن مصطلح "العنصرية" يشير إلى العملية التي تم من خلالها جعل الخصائص الجسدية (التي قد تكون ظاهرية أو وراثية) تتجاوز نفسها لتحدد القيمة الاجتماعية والصفات المنقوشة للأجسام العرقية . هذه الأجسام هي نتائج الرؤية المعيارية ، التي تشكلها عين المشاهد الأكثر قوة . تحدد مثل هذه القيم كيف سيتم استخدام هذه الأجسام ، كعبيد ، أو كعمال عرقيين ، أو في حالة الأجسام "البيضاء" ، في مناصب القوة . تاريخيًا ، عزز كل من تحديد موقع الجسم ورؤيته المفاهيم العنصرية .

ترى المناهج ما بعد البنيوية أن "العرق" فكرة مبنية تاريخيًا دخلت اللغة الإنجليزية لأول مرة في أوائل القرن السابع عشر وأصبحت مستخدمة بشكل شائع في الكتابات العلمية طوال عصر التنوير. بحلول القرن التاسع عشر، أصبحت مقبولة تمامًا في الخطاب الشعبي واتخذت الفخاخ الإيديولوجية التي جعلت العنصرية والرأسمالية والاستعمار الخصائص المهيمنة للأنظمة البشرية . أصبح العالم عنصريًا (مايلز، 1989؛ 1993؛ ينظر أيضًا بانتون، 2000؛ بارزون، 1938؛ جيلومين، 1972؛ جوردان، 1974؛ مالك، 1996؛ مونتاغو، 1997؛ ستيبان، 1982). ورغم أن المناقشات الكبرى دارت طوال القرون الثلاثة الماضية حول التأثيرات الفعلية لـ "العرق" ، إلا أنه لم يتم النظر إليه من قبل المنظرين النقديين بكونه ما يسميه مونتاغو (1997) "الأسطورة الأكثر خطورة للإنسان".

إن الدافع وراء الموقف البنائي الاجتماعي يجمع بين مبادرتين فكريتين أثرتا مؤخرًا على المعرفة الجغرافية . أولاً، في رد الفعل المكثف على النازية التي تبناها هتلر في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، أصبح رفض مفهوم "العرق" مشروعًا رئيسيًا للأمم المتحدة ، وجزءًا من الحملة الرامية إلى إنشاء إطار دولي لحقوق الإنسان . لقد قامت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) بمشروع بحثي كبير أسفر عن نشر ثلاثة مجلدات (كوبر، 1975؛ واليونسكو، 1956؛ 1980) والتي جمعت بين بعض أكثر العلماء والعلماء الاجتماعيين احتراماً في العالم لدحض مفهوم "العرق" . وقد تم تفسير هذا الرفض من خلال عدسة ما بعد البنيوية لفحص الأشكال الخاصة للعلاقات الاجتماعية الحديثة ، أو ما بعد الحداثة ، التي تدعم القوة الخطابية لـ "العرق" لخلق الاختلاف البشري .

وقد قام منظرون مثل جولدبرج (1993)، ومالك (1996) وأومي ووينانت (1994) بتوسيع فهمنا لكيفية عمل "العنصرية" داخل السياقات الثقافية المهيمنة وفي مجموعة من السياقات السياسية ، وفي إنتاج العمل (فيزاكليا ومايلز، 1980). في حين أن أدبيات ما بعد البنيوية أصبحت الآن كبيرة جدًا ، إلا أن كاتبين يستحقان الذكر لتأثيرهما الساحق وأهميتهما للجغرافيين . كان العمل المبكر لكوليت جيلومين (1972؛ 1980) كجزء من مشروع اليونسكو أكثر تأثيرًا ربما من أي عمل آخر ، سواء في تفسير التكوين التاريخي لأفكار "العرق" أو في ربط مفهومي "العرق" و"الجنس" (ينظر جيلومين، 1995). وهي تقدم في الوقت نفسه أساسًا علميًا لطرح أسئلة حول افتراضاتنا حول "العرق" بكونه أمرًا اجتماعيًا ، وتطالبنا بالتعرف على الطرق التي تتقاطع بها أشكال مختلفة من القمع التاريخي .

لم يقدم فرانز فانون (1952) أول قراءة مناهضة للعنصرية لكبار علماء ما بعد البنيوية الفرنسيين فحسب ، بل ألهم أيضًا جيلًا كاملاً من العلماء الأمريكيين ، على وجه الخصوص ، لفهم العنصرية المناهضة للسود وعلاقتها بتاريخ الاستعمار والعبودية . وتستمر القراءات الجديدة لأعماله في إثراء هذا المنظور، وهي تشير الآن إلى ظاهرة فكرية "فانونية" (ينظر بشكل خاص جيبسون، 1999؛ جوردون وآخرون، 1996). وكان عمل فانون مؤثرًا بشكل خاص بين الجغرافيين المعنيين بالتقاطعات التاريخية بين العنصرية والاستعمار (على سبيل المثال، بلوت، 1993) . وكما أشار بايل مؤخرًا : ما جذب الناس بشكل خاص هو رفض فانون السماح للفئات "العادية" للحياة الاستعمارية - مثل "الأسود" أو "الأبيض"، أو "الأصلي" أو "الأجنبي" - بأن تكون أصيلة أو مستقرة .(262: 2000)

إن ممارسة زعزعة استقرار الفئات المعيارية للحياة هي ممارسة مزعجة للغاية وجغرافية في الأساس : بالنسبة لفانون ، فإن فرض النظام الاستعماري لتسلسلات هرمية للجلد لا يحدد فقط مدى رؤية الجسد ، ويحدد أيضًا مكانة الجسد ، بل ... نسجها الرجل الأبيض أيضًا "من ألف تفصيلة ، وحكاية ، وقصة ، وشخصية ... "القصص... يُظهِر أن الهوية الذكورية السوداء مُصاغة من مجموعة من التعريفات التي تتسم بالقلق بطبيعتها- والخوف والرغبة في الوقت نفسه . هذه التعريفات تهرب إحساسًا بالذات - الأسود والأبيض – عبر حدود سوداء / بيضاء خيالية ، وإن كانت أساسية .

إن مخطط البشرة الأسود / الأبيض لا يُفرض من الخارج فحسب ، بل إنه... محفور أيضًا في حركات الناس ، في أفعالهم ، وأفكارهم ومشاعرهم . لكن الأسود هو الذي يتحرك تحت التدقيق المستمر لعيون "السيد" الخائف / الخائف "الزرقاء ." (264 :2000) إن تفسير بايل يدفع الخيال الجغرافي إلى تجاوز الملاحظات الساذجة للطرق التي تكون بها الأماكن نتيجة للعمليات السياسية ، إلى الانخراط في التغيير الاجتماعي نفسه . نتيجة لذلك ، **لن يعود أي شيء طبيعيًا أبدًا ، لقد تحطمت الرؤية الجغرافية المركزية لصالح رؤية متعددة البؤر** .

في قلب الموقف البنائي يوجد رفض لأي وضع أساسي لما تم بناؤه كأجسام عنصرية ، أي رفض الاعتقاد بأن "العرق" يحدد السمات البشرية الأساسية التي تحدد القيم أو القدرات الأخلاقية أو الفكرية أو الثقافية ، أو أي شيء آخر . إن النهج البنائي لـ "العرق" يتفق مع نظرية ما بعد البنيوية وخاصة مع النظرية النسوية ، التي تعترف بأن المفاهيم الجوهرية تعمل بشكل معياري لتوفير القالب الأساسي لبناء العلاقات الإنسانية من خلال تدوينها الخطابي لكل فعل بشري ، وبالتالي تعمل على تحديد علاقات القوة .

إن إحدى القضايا الأكثر خطورة يواجهها منظرو "العرق" هي تجاوز الافتراض القائل بأن الاختلاف البشري نفسه هو الذي يحتاج إلى تفسير، وليس الميل البشري إلى خلق الاختلاف . وكما يشير بانتون ، فإن فكرة "العرق" راسخة بقوة في التفكير الحديث ، ومُثبتة بشكل عميق من خلال الوسائل العلمية والاجتماعية والثقافية ، حتى أن "الاختلافات الجسدية تجذب انتباه الناس بسهولة لدرجة أنهم أقل سرعة في إدراك أن صحة "العرق" كمفهوم تعتمد على قيمته كمساعد في التفسير" (2000: 51-2).

ويعمل المنظر في عالم ما تزال فيه المفاهيم الأساسية المسلم بها عن "العرق" تهيمن ، ويصعب التغلب عليها حتى بالنسبة لأولئك الذين يتبنون وجهات نظر بنائية . وقد تطلب القيام بذلك تحولاً من دراسة العرق إلى أولئك الذين خلدوا فكرة "العرق" ؛ أو بعبارة أخرى ، **التحول من "العرق" إلى العنصرية** (جاكسون، 1987أ) . ويعيد هذا التحول صياغة "المشكلة" ليس بكونها مشكلة الأشخاص الملونين ولكن بكونها مشكلة المسؤولين عن التمييز التاريخي . وفي هذا السياق ، من المهم أن ندرك ليس فقط الأشكال التاريخية للعنصرية ، والتي تعد واضحة بذاتها لكثير من المراقبين المعاصرين ، بل وأيضاً الأشكال الخطابية الدقيقة وغير الملحوظة غالباً ـ حتى من قِبَل أكثر المراقبين انتقاداً ـ والتي ما تزال ترسم ملامح عملية العنصرية اليوم من خلال وسائل اجتماعية مسلَّم بها .

وبالنسبة للعديد من الكتاب المعاصرين ، يعني هذا التحدي تجاوز دراسة العنصرية إلى دراسة "البياض" بكونه شكلاً تاريخياً من أشكال العنصرية . ولا ينطوي البياض على تصوير أولئك الذين ليسوا بيضاً بمصطلحات متحيزة فحسب ، بل يشمل أيضاً تعزيز مركزية وتفوق الأشكال الثقافية أو الاجتماعية أو الجمالية البيضاء . وقد يتعلق الأمر بغياب الملونين وحضورهم ، وهو يعمل بشكل مستقل عن وجودهم . وقد دفع هذا الاعتراف بعض الباحثين إلى التصريح بأن "إلغاء العرق الأبيض" (إجناتيف وجارفي، 1996) لن يحل مشكلة العنصرية .

ومع ذلك ، فإن مفهوم البياض متناقض . فالدراسات التي تتناول البياض تخاطر بتجاهل الأشخاص غير البيض (بونيت، 1993؛ 1996أ؛ 1996ب)، مع الحفاظ على امتياز البيض حتى من منظور نقدي . ويمكن ترجمة مشروع البياض إلى أشكال لا حصر لها ؛ والواقع أن الاعتراف بقدرته على التكيف والمرونة والتنوع أمر ضروري لفهم قوته . ولكن يتعين فهم هذه الأشكال ، ليس فقط من حيث شروطها الخاصة ، بل وأيضاً وفقاً لتأثيرها ، وقابليتها للمقاومة ، بين الأشخاص غير البيض . لقد انخرط الجغرافيون بنشاط في كل من الدراسات البنائية ودراسات "البياض" على مدى العقد والنصف الماضيين ، وخاصة في بريطانيا حيث عزز عمل بيتر جاكسون (1987ب؛ 1989؛ 1992؛ 1993) فهم الجغرافيين لأهمية فهم "العرق" بكونه بناء تاريخيًا ، و وسع مفهوم "العرق" بكونه بناءًا فكريًا إلى تحليلات لكيفية بنائه مكانيًا .

يعمل البياض في أقوى مستوياته عندما يكون مهيمنًا ، مما يخلق مظاهر طبيعية لا يظهر فيها حتى الأشخاص الملونون (كوباياشي وبيك، 2000) . في كندا ، هناك فهم غني بشكل خاص لكيفية إضفاء الطابع العنصري على مدينة فانكوفر من خلال خطاب مهيمن حول البياض (ينظر أندرسون، 1987؛ 1991) وكيف تخلق الدولة أيديولوجية وطنية للبياض (بيك وراي، 2000) . وفقًا لأندرسون : إن الرؤية القائلة بأن الهويات

العرقية تُبنى من سياقات تاريخية وسياسية محددة دفعت إلى مراجعة جذرية لنظرية الفصل العنصري في المدن . وقد تطلب الأمر من الجغرافيين تبني نهج أكثر صرامة يفحص بشكل نقدي القفزة الخطابية التي حدثت في الثقافات الغربية من الاختلافات المرئية إلى شيء أكثر جوهرية والذي يُطلق عليه "العرق" .

كانت هذه خطوة تجاوزت وصف الأشكال المكانية التي أنتجتها المفاهيم الشائعة للاختلاف إلى تفكيك عمليات الإقصاء والإدماج التي أنتجت منها مدنًا منفصلة ، رمزيًا وماديًا . (1998ب: 204-205) وفقًا لبونيت (1996ج) ، في مراجعة شاملة لدراسة "العرق" من قبل الجغرافيين البريطانيين بشكل أساسي ، أصبح النهج البنائي النموذج السائد ، من خلال المساهمة في فهم متعدد التخصصات للعنصرية ، **وفهم جغرافي محدد لكيفية عرقنة "المساحة"** . إننا بحاجة إلى فهم المناطق الحضرية بكونها أماكن للصراع القائم على العرق وبكونها مواقع محددة يتنوع فيها بناء معنى المكان وفقًا للتاريخ والخبرة والممارسة الثقافية ، مما يجعله قابلاً للتغيير بدرجة كبيرة وعرضة لإعادة التعريف والإصلاح السريعين في بعض الأحيان (1996ج: 876-7، في إشارة إلى كيث، 1993).

ومع ذلك ، تعرض النهج البنائي في الجغرافيا للنقد ، وذلك بسبب نجاحه المحدود في "ربط الجوانب الثقافية والمادية للعرق وعدم المساواة القائمة على العرق بطريقة توضح هيكلها المتبادل" (أندرسون، 1998ب: 204) وبسبب فشله في تجاوز فهم "العرق" بكونه بناءً اجتماعيًا لفهمه بكونه بناءً سياسيًا (كوباياشي وبيك، 1994). ويعزو بونيت المشاكل التي تعيب النهج البنائي إلى تقديس الاختصاص ، مدعياً أن الجغرافيين لم يكونوا قط "واثقين تماماً من أن المكان "مهم" حقاً" **، وأن أهمية الجغرافيا "لا يمكن أن تتجلى بشكل كامل إلا عندما يتم التخلي عن "المنظور الجغرافي" في النهاية" لصالح منظور "يتم فيه نسج "الجغرافيا والتاريخ وعلم الاجتماع معاً كمكونات ضرورية على قدم المساواة لرواية متعددة التخصصات بالكامل"** (1996ج: 880-1).

وفي مكان آخر، يدعم بونيت الادعاء ، الذي يزداد شعبية بشكل متزايد خاصة بين العلماء في أمريكا الشمالية ، بأن النهج الأكثر فعالية يجب أن يتخذ موقفاً مناهضاً للعنصرية ، الذي "يشير إلى تلك الأشكال من الفكر و/أو الممارسة التي تسعى إلى مواجهة العنصرية واستئصالها و/أو تحسينها" (2000: 4). إن مناهضة العنصرية تختلف عن عدم العنصرية لأنها تنطوي على التزام فعال بمشروع التغلب على العنصرية وآثارها . وفي حين أن مناهضة العنصرية متنوعة ومتناقضة في بعض الأحيان ومعقدة دائمًا ، فإنها تنطوي دائمًا أيضًا على مشروع سياسي محدد . ولأن مناهض العنصرية لا يكتفي بالفهم النقدي للعنصرية أو البياض بكونهما بناءات تاريخية ، فإنه يسعى إلى وضع علمه في سياق تاريخي ، مع الغرض الصريح من التدخل سياسيًا ، وتحويل الخطاب الأكاديمي من تحليل تركيبي لعملية العنصرية إلى تحليل تاريخي للعلاقة بين البناءات التاريخية والمخاطر المستمرة على الرفاهة الجسدية والعاطفية للشعوب التي تم إضفاء الطابع العنصري عليها (كوباياشي وراي، 2000). إن مكافحة العنصرية تتطلب مستوى عالياً من الانعكاسية (كوباياشي، 1994؛ 2001)، وربما يصل الأمر إلى حد تأسيس العمل السياسي والتغيير الاجتماعي كهدف يمكن أن تكون النظريات الملائمة أداة لتحقيقه ، بدلاً من العكس.

الانعكاسية

لا تنطوي على معرفة جديدة فحسب ، بل تنطوي أيضاً على نمط جديد من المعرفة المنخرطة ، والتخلي عن الإيمان بالعلم الإيجابي وفي قدرة الباحث أو ضرورة أو رغبة الباحث في البقاء منفصلاً عن تحقيقه . الانعكاسية ليست ببساطة شكلاً محسناً من أشكال المنهجية ، بل هي موقف معياري وأخلاقي . وبينما

ربما ساهمت النظريات البنائية في التحرك الأخير نحو الانعكاسية من جانب الجغرافيين ، فإنها لا تكفي بأي حال من الأحوال لتطوير الالتزام السياسي أو العمل الاجتماعي . وبعبارة بسيطة ، فإن الجغرافيا المناهضة للعنصرية تدور حول الاهتمام بظروف حياة أفراد معينين أحياء ، أكثر من كونها تتعلق بنظرية "العرق."

ولكن الانعكاسية متناقضة أيضًا ، وخاصة في موقف حيث يهيمن العلماء البيض على مجال دراسات مناهضة العنصرية - في الجغرافيا على وجه الخصوص - ، والذين تعني الانعكاسية بالنسبة لهم من ناحية التأمل الأخلاقي في كل من دورهم في إعادة صياغة العلاقات العنصرية وفعاليتهم كناشطين مناهضين للعنصرية ، ولكن من ناحية أخرى خطر الاستيلاء على الأساس الأخلاقي لمناهضة العنصرية مع المخاوف بشأن موقفهم الخاص . إن الانعكاسية هي جانب ضروري من المنح الدراسية المعاصرة ، ولكن يجب أن تكون دائمًا في حالة تأهب ضد الغطرسة ، أو ضد تحويل المشروع المناهض للعنصرية نفسه إلى مشروع أبيض .

هناك قائمة متزايدة من الأمثلة الحديثة على العمل الذي قام به ، وخاصة ، **الجغرافيون الملونون** الذين يجلبون الخبرة الشخصية والالتزام والشغف إلى عملهم . تنسج روث ويلسون جيلمور (1998-9) رابطًا معقدًا بين العنصرية والعولمة ، ومكافحة الإرهاب ونمو شبكات السجون في الولايات المتحدة لتوفير ليس فقط تحليلًا علميًا مقنعًا للعمليات التي استهدفت المهاجرين والسجناء بطرق عنصرية ، ولكن أيضًا شعورًا بالتزامها بقضية إزالة العنصرية من النظام الجنائي ، والعمل بشكل مباشر مع الأشخاص الذين تتأثر حياتهم بشكل كبير . إن عمل لورا بوليدو (2000) حول العنصرية البيئية لا يجلب التزامًا بمكافحة العنصرية فحسب ، بل يجلب أيضًا اهتمامًا بيئيًا عميقًا ، وأحد أقوى المبررات للدور المزدوج للأكاديمي والناشط في إحداث التغيير الاجتماعي . يؤكد تناول كلايد و ودز (1998) الواسع الاطلاع لدور البلوز في جنوب الولايات المتحدة على العلاقة المتكررة بين الثقافة والسياسة ، ولكن إنني أتحدث عن تجربتي الشخصية في دمج التزامي بالمساواة وحقوق الإنسان مع عملي الأكاديمي المخصص بشكل خاص لقضايا العنصرية (كوباياشي، 1994؛ 2001). وأعتقد أن عملي كان ليقل مصداقيته وفهمه وتأثيره لو لم يكن قائماً على أجندة نشطة .

ولكن ماذا عن ادعاء بونيت بأن الجغرافيين بحاجة إلى التخلي عن شعورهم بالاختصاص من أجل تحقيق أجندة مناهضة العنصرية ؟ ومن الجدير بالذكر أن كتاب بونيت الأخير "مناهضة العنصرية" (2000)، على الرغم من أنه يجذب جمهوراً عريضاً ومتعدد التخصصات ، لا يذكر الجغرافيا تقريباً . وعلى نحو مماثل ، في مقال آخر يؤكد فيه على أهمية "الاحتمالية التاريخية والجغرافية للبياض" (1996ب: 104) ، فإنه لا يذكر عمل الجغرافيين . ويزعم أن هذا التعصب التخصصي أدى إلى فشل في دمج مفاهيم البياض أو مناهضة العنصرية بشكل كافٍ ، وبالتالي استبعاد هذا التخصص من الفهم الكافي للعنصرية .

ولكن فشل بونيت في التعامل مع الأدبيات الجغرافية ، وخاصة تلك التي أنتجت خلال السنوات الخمس الماضية ، يعني أنه أغلق الباب أمام إمكانية مراجعة فهمه الخاص للاحتمالية الجغرافية . كما أنه لا يوضح **العلاقة المهمة ، والأساسية تاريخيًا ، بين "العرق" و"المكان" من منظور متعدد التخصصات** . إن هذا المشروع ، إذا تم تنفيذه بفعالية ، قد يوضح بشكل أكبر أن علم الاجتماع والتاريخ والعلوم الاجتماعية الأخرى ، لا يمكن دعمها أيضًا بأصنام "المجتمع" و"الزمن" وما شابه ذلك . ونحن ننتظر، إذن، العمل الذي سيسمح بتحويل المعرفة الجغرافية بحيث نصبح أكثر وعيًا بالطرق التي عجز بها الجغرافيون ، من خلال قبولهم العرضي تقريبًا لمفهوم "الفضاء" ، عن التعامل بفعالية كما قد يفعلون مع الطرق التي تتشابك بها "العرق" و"الفضاء" .

لقد فشل بونيت وآخرون في شرح النقطة التي مفادها **أن "الفضاء"، مثل "العرق" ، هو مفهوم تم بناؤه تاريخيًا وتم تعبئته في المشاريع الكبرى للحداثة** . إن بناء "الفضاء" يحتاج أيضًا إلى العودة إلى جذوره في عصر التنوير، والعودة إلى الطرق التي بنى بها كانط معرفة الجغرافيين المستقبليين وصنفها إلى فئات . كانت فكرة **"الفضاء"** بالنسبة إلى كانط فئة وجودية أساسية ، ضرورية للتفاعل بين الإنسان والعالم ، وكذلك لهيكلة نسيج العمل البشري . لقد زعمت في مكان آخر (كوباياشي وبيك، 1994: 239؛ ينظر أيضًا كانط، 1970: 55) أن الاستراتيجيات المكانية الحديثة ، بما في ذلك تعيين أماكن معينة على أنها يمكن الوصول إليها أو لا يمكن الوصول إليها ، واستبعاد النساء والأشخاص الملونين بشكل خاص من مواقع معينة ، وتطوير شعور بالإقليمية المكانية من خلال الاستعمار ومفهوم الملكية الخاصة ، يجب أن تُفهم في ضوء الجهود التي بذلها كانط وغيره من مفكري عصر التنوير لبناء "الفضاء" وترميز استخدامه العام بشكل خاص بتصاميم إيديولوجية .

لا يسمح نطاق هذا الفصل بمناقشة كاملة لتطور مفهوم "الفضاء" كفئة جوهرية ، ولكن من الأهمية بمكان أن نلاحظ **أن "الفضاء" و"العرق" يشتركان في تراث مماثل** . إن كلاً من العنصرين يلعبان دوراً مزدوجاً بكونهما مقولتين خطابيتين عامتين متجذرتين في منطق التنوير وضروريتين لأهداف كل من الاستعمار والرأسمالية . وفي الوقت نفسه بكونهما موضوعين للبحث العلمي ، ولو أن "العرق" خضع للتدقيق العلمي قبل قرنين من الزمان من ارتفاع "الفضاء" إلى هذا الحد في القرن العشرين ، وقد طمس الإيديولوجية كلا منهما عن التقييم النقدي . والواقع أن المشروع الإيديولوجي المتمثل في إضفاء الطابع العنصري هو في الوقت نفسه مشروع إضفاء الطابع المكاني . وكلا المشروعين يشكلان جزءاً أساسياً من بناء المعرفة الجغرافية . وقد استندت هذه المعرفة إلى شكل غريب تاريخياً من الرؤية الأخلاقية حيث تم تدريب عين الجغرافي على إلقاء نفسها على العالم ، وتنظيمه ورسم خرائطه وبناء أبعاده الإنسانية وفقاً لمفاهيم جوهرية تستخدم لتحقيق غايات أيديولوجية بكونها بناءات تنظم وتقيد وتصنف التجربة الإنسانية .

إن الجغرافيا ، إذا ما أخذنا في الكون بنائها التاريخي ، تشكل أهمية بقدر أهمية "العرق" ، ليس لأن أياً منهما يستنتج خصائص جوهرية للبشر أو المظاهر الطبيعية ، بل لأن كلاً منهما ينتج عن عمليات التمايز البشري . ولا يتعلق الأمر بتعصب للاختصاص بقدر ما يتعلق بتعصب مكاني أعاق الجغرافيين عن إدراكهم الكامل بأنهم كانوا رهائن فكريين ، في كثير من النواحي ، للإيمان بـ "الفضاء" كموضوع للتحقيق . وفي جذر التعصب المكاني ، كما هو الحال مع التعصب العنصري ، تكمن فكرة جوهرية لتخصصنا ، والتي مرت بسلسلة من الأفكار الجوهرية الأخرى قبل أن تصبح مهووسة بـ "الفضاء" (ينظر مايو، 2000).

وعلى الرغم من الأعمال الحديثة التي تنمي بشكل واضح جودة "الفضاء" العلائقية والأيديولوجية والتاريخية (ينظر ليفبفر، 1991؛ سوجا، 1996)، فقد كان الجغرافيون بطيئين للغاية في التخلي عن دراسة "الفضاء" ، أو في الاعتراف بمدى جوهرية هذا المفهوم . وللحصول على دليل ، ما عليك سوى التقاط أي مجلة جغرافية ، حتى المجلات الراديكالية أو النقدية ، لترى الطريقة غير النقدية التي يتم بها استخدام كلمة "الفضاء" في غالبية اللغة الجغرافية ، بنفس الطريقة التي يتم بها استخدام كلمة "العرق" في الخطاب الشعبي . إن التحدي الذي يطرحه بونيت للتغلب على تقديس المكان لابد وأن يؤخذ على محمل الجد ، ولكن ليس على حساب استكشاف الطرق التي تواطأ بها الجغرافيون طوال تاريخ هذا التخصص في بناء "الفضاء" وبالتالي في بناء "العرق" .

ولكن على النقيض من بونيت ، أعتقد أن انشغال الجغرافيين بالفضاء يعني ضرورة التعامل معه بجدية أكبر، حتى يتسنى العمل من خلال هذه العلاقة على التركيز على العنصرية والمكانية . ولكن هناك

مشكلة أخرى تتطلب تطوير النشاط في الجغرافيا . فما دامت المعرفة الجغرافية بـ "العرق" تظل متميزة بكونها معرفة بيضاء ، فإنه حتى أكثر العلماء انتقاداً وتأملاً سوف يجدون صعوبة في دعم أو الدفاع عن المنح الدراسية المناهضة للعنصرية . وكما يرى ديلاني : إن انطباعي هو أن الجغرافيا كمؤسسة تكاد تكون مشروعاً أبيض مثل موسيقى الريف والغرب أو الجولف الاحترافي... فمعظم المعلمين من البيض، ومعظم الطلاب من البيض ، ومعظم المناقشات حول العرق في هذه السياقات تدور بين البيض.(22 25 :1998).

ولكن على الرغم من بعض الدراسات المشجعة التي ناقشناها أعلاه ، فإن هناك القليل من الأدلة على أن هذه المناقشات تجري على نطاق واسع . إن الإهمال النسبي المستمر لقضايا العنصرية ، والندرة المستمرة للجغرافيين الملونين ، هي نتيجة مباشرة للماضي العنصري لهذا التخصص ، والذي تشابك مع إرث من الافتراضات العميقة حول الاختلافات الطبيعية التي يخلقها "العرق" . كما يشير جيري توماس : إن التجاهل القاطع من جانب التخصص للقضايا التي تواجه المجتمع الأميركي (والمجتمع الغربي ومستعمراته بشكل عام) فيما يتصل بالعلاقات العرقية ، والهوية العرقية ، والسياسات العرقية... يشير إلى تخصص مشبع بهوية عرقية وأيديولوجية معينة .(134: 1998)

في بريطانيا ، حيث تم إنتاج قدر كبير من نظرية "العرق" النقدية في الجغرافيا ، فإن التخصص أبيض بالكامل تقريبًا ، ويتغير ببطء شديد . أما في الولايات المتحدة وكندا ، فإن الوضع أفضل إلى حد ما - ولكن إلى حد ما فقط . ومن المؤسف أن الحوار بين منظّري العرق النقديين والجغرافيين النشطين من ذوي البشرة الملونة كان محدودًا للغاية ، سواء على المستوى النظري أو السياسي . وقد بدأت الأحداث الأخيرة مثل ورشة العمل التي مولتها مؤسسة العلوم الوطنية حول "العرق" والجغرافيا والتي عقدت في جامعة كنتاكي في عام 1998في تقليص هذه العزلة . وقد ألهم هذا المؤتمر إنشاء "بيان مناهض للعنصرية" يستهدف هذا التخصص ، فضلاً عن مشروع تدعمه حتى الآن جمعية الجغرافيين الأميركيين وجمعية الجغرافيين الكنديين ، لاتخاذ التدابير اللازمة لزيادة مشاركة الطلاب الملونين في برامج التدريب العليا . وتُظهِر الإجراءات العلمية للمؤتمر لأول مرة تكاملاً متطوراً بين النظرية النقدية والنشاط .

تحتاج الجغرافيا إلى تحول مناهض للعنصرية بقدر ما تحتاج إلى مزيد من التطوير المعرفي للنظرية المناهضة للعنصرية ، وذلك لجعل الجغرافيين ، وليس الجغرافيا فقط ، ممثلين لأهدافها السياسية . ويرجع هذا جزئيًا إلى قضية حقوق الإنسان وإمكانية الوصول ، للسماح للأشخاص الملونين بالوصول إلى "مساحات" المعرفة التي حُرموا منها سابقًا . لكن تكافؤ الفرص ليس القضية الوحيدة . وفي حين لا يوجد سبب جوهري يجعل الجغرافيين الملونين يتمتعون بمنظور أفضل بشأن قضايا العنصرية ، إلا أنه يظل من الحقائق أن غالبية الأعمال التجريبية التي ترسم خريطة الاستبعاد العنصري لمجتمعات الملونين قد تم إجراؤها من قبل جغرافيين لديهم ارتباط شخصي بتلك المجتمعات ، وهو ارتباط نابع من الالتزام والخبرة الشخصية وأخلاقيات الرعاية التي تحفز عملهم .

وفي عالم مثالي مناهض للعنصرية ، لن يكون للون أهمية ، سواء بالنسبة للمعرفة أو الالتزام السياسي ؛ لا يوجد سبب نظري يجعل اللون يؤثر على أي منهما . ولكن حقيقة أن الجغرافيا تظل علماً أبيض اللون تُظهر أن اللون مهم ، على الأقل في هذا الوقت من تاريخنا ، وإلى أن نصلح التوازن ، ستظل معرفتنا عقيدة منافقة . لقد أثبت الجغرافيون النقديون جيداً أن المعرفة لا تقف مستقلة عن العارف ، ولكنهم كانوا غير فعالين نسبياً حتى الآن في تحويل توازن العارفين . للقيام بذلك ، نحتاج أيضاً إلى **التعامل بجدية مع المكانية التي يتمتع بها هذا العلم** ، ومسألة من الذي يحق له أن يكون في أي مكان في هذا العلم ، وأن يمارس السلطة على احتلاله .

الخلاصة

لقد تناولت ثلاث لحظات في تاريخ المعرفة الجغرافية لفكرة "العرق" ، لإظهار أن الجغرافيين مروا عبر الزمن بثلاث لحظات مهمة على الأقل . في حين أن هذه المراحل لا تتبع تسلسلًا زمنيًا صارمًا أو حتى مسارًا فكريًا متسقًا ، وهناك العديد من القيم المتطرفة الفردية للتقدم الموصوف هنا ، فإن هذه اللحظات الثلاث تصور، في اعتقادي ، تحولات مفاهيمية رئيسية في الطرق التي درس بها الجغرافيون "العرق" . تضمنت اللحظة الأولى محاولات لإضفاء الشرعية على "العرق" كأساس علمي لفهم الاختلاف البشري ، ولكن أيضًا لتبرير ممارسات العنصرية التي شاركت في الهيمنة الاستعمارية والرأسمالية اللاحقة . تضمنت المرحلة الثانية نهجًا ليبراليًا ، قائمًا على النظريات الاجتماعية الإيجابية ، التي تجنبت الإيمان بـ "العرق" كعامل حاسم ، ولكنها عرقت آثار التمايز البشري من خلال تقليص الخصائص العرقية إلى أنماط مكانية والفشل في معالجة الطرق التي يبني بها البشر الاختلاف .

في اللحظة الثالثة ، اعترفت أحدث المناهج البنائية بفكرة "العرق" كأساس للمشروع التاريخي للعنصرية ، وطورت فهمًا نقديًا للأشكال الخطابية التي تدعم العنصرية . ومع ذلك ، لم يفعل هذا الفهم الكثير لنزع الصفة العنصرية عن تخصص الجغرافيا ، بل عزز حتى من قوة الجغرافيين البيض في تحديد المصطلحات الفكرية التي نفهم بها "العرق" . كانت اللحظات الثلاث مهيكلة بشكل أساسي من خلال مفاهيم عصر التنوير للتمييز البشري والمكاني ، وهي المفاهيم التي تعززت من خلال مركزية العين في المجتمع بشكل عام وتخصص الجغرافيا بشكل خاص .

ولكل من المفهومين جذور عميقة ، وإن كانت بعيدة عن الحصرية ، في عمل الجغرافي / الفيلسوف إيمانويل كانط . إن المعرفة الجغرافية قوية حقًا - ربما أقوى مما نعطيها الفضل . إن التحدي الذي يواجهنا ، إذا أردنا أن نستخدم المعرفة الجغرافية للتغلب على العنصرية ، يتلخص في شقين : استكشاف العلاقة المعرفية المتكررة بين "العرق" و"المكان" ، وبين العمليات التاريخية للعنصرية والمكانية ؛ وإضفاء المزيد من الانعكاسية والالتزام السياسي الأقوى على المعرفة الجغرافية . فكما يظهر تاريخ العنصرية ، فإن المعرفة الجغرافية والنشاط مترادفان .